قصّة
قابيل وهابيل

obeikandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ أعِنْ

هبط آدم مع زوجه حواء من الجنَّة إلى الأرض وابتدأ دوره كنبيٍّ، بعد أن أخبر ربُّ العزة الملائكة أنه جاعله خليفة في الأرض يعمرها مع ذريَّته ويعبدون الله فيها.

وكان أولاد آدم توائم، ذكر وأنثى في كل بطن. وكان من شريعة آدم توحيد الله، إضافة إلى وجود نظام للتعامل بين الذريَّة.

وقد أمر الله آدم بأن لا يتزوَّج الذَّكر من أخته التوأم التي خلقت معه في البطن نفسه، وإنما يتزوَّج الذَّكر من الأنثى التي خلقت في البطن الآخر، ويتزوَّج الذَّكر الذي خلق في البطن الثاني بالأنثى التي خلقت مع الذَّكر الأول.

وسمَّى آدم ذَكَر التوأم الأول: قابيل، وقد ولدت معه أنثى جميلة. وسمَّى ذَكَر التوأم الثاني: هابيل، وقد ولدت معه أنثى لم تكن بجمال التي ولدت مع قابيل.

ونشأ الأخوان وكبرا وعمل كل واحد منهما عملاً يختلف عن الآخر. فكان قابيل يعمل في الزراعة، ولم يكن كثير التقوى لله، ولم يكن مطيعاً لوالديه كما يجب؛ بل كان كثير المعارضة في الأمور التي لا تعجبه.

بينما الولد الثاني هابيل كان يعمل في رعي الأغنام، وكان شديد

التقوى لله، وباراً بوالديه ينفذ ما يأمراه به طاعة لهما.

وكبر الجميع حتى أصبحوا في سن الزواج. وأراد أبوهم آدم أن ينفذ شرع الله، بأن يزوِّج قابيل من الأنثى التي وُلِدَتْ مع هابيل، والتي لم تكن بارعة الجمال كالتي وُلِدَتْ معه. وأن يزوِّج هابيل للأنثى التي وُلِدَتْ مع قابيل.

ووجَّه خطابه لقابيل وهابيل فما كان من هابيل إلا أن سمع كلام والده الذي أراد أن ينفذ شرع الله في ذلك. بينما قابيل اعترض على تنفيذ الأمر وأبى أن ينصاع لأمر والده. وأراد أن يتزوَّج بالأنثى التي ولدت معه على أنَّها أجمل من الأخرى.

وحتى لا يختلف الاثنان مع بعضهما، أراد آدم أن يعطي بيِّنة للاثنين بأن يقرِّبا قرباناً[1] إلى الله. ومن يتقبَّل قربانه منهما، فهو الذي يتزوَّج بأخت قابيل الجميلة.

وقرَّب الاثنان قرابينهما لله. وتقبل الله قربان هابيل التقي ولم يتقبَّل قربان قابيل.

هنا ثار غضب قابيل وقال لأخيه بعد أن دبَّ الحسد في نفسه وغار منه: لأقتلنَّك.

وكان هابيل يتمتَّع بالحلم والرحمة وشدَّة التقوى. فبعد أن هدَّده أخوه بالقتل، ورآه قد صمَّم على ذلك. بيَّن لأخيه سبب تقبُّل الله لقربانه، بأن الله يتقبَّل القرابين من المتَّقين.

قال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ

(1) القربان: ما يتقرَّب به إلى الله.

﴿أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: 27].

ولكنَّ قابيل صمَّم على قتل أخيه، ولم يراع أخوَّته لأخيه، ولا صحبته له، ولا الأنس الذي كانا عليه في الحياة التي قضياها على وجه الأرض.

ولما رأى هابيل تصميم قابيل على قتله، قال له: إن مددت يدك لتقتلني ومصمِّم على ذلك، فأنا لن أفعل شيئاً من هذا، لأني أخاف الله ربَّ العالمين.

فهذا الكلام كفيل بأن يجعل من يسمعه ولو كان في قمة غضبه أن يتمهَّل ويعيد النظر فيما أراد عمله، ثم يُقْبِل على أخيه فيعانقه ويعتذر له عما بدر منه في حقِّه.

وأراد هابيل بقوله هذا، أن يحدث تأثيراً في نفس أخيه، لاعتقاده أنه مهما بلغ منه الغضب، فإنَّه لن ينفِّذ ما عزم عليه؟! أليس أخاه!

وعادة المخطئ والمقصِّر ومن سيطرت عليه نار الغيرة، أن يتسلَّط عليه الحسد ولا يفكِّر بسبب فشله، الذي أدَّى إلى خسارته، وإنما يُحَمِّل غيره المسؤولية عن هذه الخسارة وذلك الفشل. ويصوِّر له عقله المريض أن التخلُّص من الناصح له هو الحلُّ المناسب لإنهاء مشكلته.

ولكن هذا الردَّ من هابيل على ما أراد أخوه أن يفعله به، لم يأت بنتيجة. وما كان ليأتي بها مع قابيل ومن كان على شاكلته، ممن تَمَكَّن منه الحسد وتحكَّم فيه الحقد، وإنما نتيجته تكون مع المتَّقي الخيِّر، الذي يخشى الله ويلتزم بأوامره ونواهيه.

وقد ذكر موقف هابيل من أخيه في القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: 28].

ورغم ذلك ظلَّ قابيل مصمِّماً على قتل أخيه. عندئذٍ قال هابيل لأخيه: إن بقيت مصمِّماً على فعلك، أرجو أن تحمل ذنوبي إضافة لذنوبك فتكون من أهل النار لأن النار هي مأوى الظالمين، ولأنَّك بقتلي تكون قد ظلمتني، ولم أفعل لك شيئاً أستوجب عليه القتل. ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي[1] وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: 29]، لأن الجزاء في الآخرة بالحسنات والسيئات، يكون بإعطاء المظلوم من حسنات الظالم ما يساوي حقه إن كان له حسنات توازي ذلك، أو يحمل الظالم من سيِّئات المظلوم ما يوازي ذلك إن كانت له آثام. وما نَقُصَ من هذا أو ذاك يستعاض عنه بما يوازيه من الجزاء في الجنَّة أو النار.

ورغم كل ما دار بين الاثنين، صمَّم قابيل على قتل أخيه هابيل، بعد أن مهَّد له الشيطان بوسوساته له، وبسط له الأمر في القتل لأنَّه بقتل أخيه سيكون من أصحاب النار وهذا ما يتمنَّاه إبليس من أولاد آدم.

واستهان قابيل بأمر القتل فقتل أخاه هابيل. وبعد أن رآه مقتولاً ممدَّداً على الأرض بلا حراك، ندم على ما كان من تصرفه الأحمق. ولكن ماذا ينفع النَّدم؟

هل هذا النَّدم سيعيد الحياة لأخيه الذي فقده بسبب هذا التصرف الأرعن؟!

---

(1) بإثمي: يُؤخذ من سيئاتي فتطرح عليك بسبب ظلمك لي.

بالطبع كلا!

وعن موقفه تجاه أخيه وقتله له قال تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ[1] قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ[2]﴾ [المائدة: 30].

فكان قابيل أول من سنَّ القتل في هذه الأرض. وكل من قتل بعده كان له عذابٌ على فعلته، كما يكون لقابيل إثم في ذلك أيضاً، لقول رسول الله ﷺ: **«لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها، وذلك لأنَّه كان أوَّل من سنَّ القتل»**[3].

ولما قتل قابيل أخاه ندم فقعد يبكي عند رأسه لا يدري ماذا يفعل به.

وبينما هو جالس واجم قرب أخيه المقتول، أرسل الله غرابان اقتتلا أمامه فقتل أحدهما الآخر، وقابيل ينظر إليهما.

فما كان من الغراب القاتل، إلا أن حفر بمنقاره ورجليه حفرة في الأرض، ووضع الغراب المقتول فيها، ثم طمره بالتُّراب فدفنه. وقابيل ينظر إلى الغراب القاتل كيف دفن الغراب المقتول. فنظر إلى نفسه وقال: إن هذا الغراب الأسود المنبوذ كان أفضل منِّي، حيث عرف ماذا يفعل بالغراب الآخر الذي قتله. وأنا لا أعرف ماذا أفعل. فقام وحفر حفرة لأخيه ودفنه فيها.

فكان من بعث الله للغراب حكمة ليري ابن آدم كيف تتم عملية

---

(1) طوّعت له نفسه: سوّلت وسهّلت عليه الأمر وشجّعته.
(2) أصبح من الخاسرين: خسر الدنيا والآخرة.
(3) ذكره البخاري في صحيحه.

الدفن، فصار فعل الغراب في الدَّفن سنَّة باقية في الخلق حتَّى تقوم الساعة.

قال تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ[1] فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى[2] سَوْءَةَ[3] أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ[4]﴾ [المائدة: 31].

وبعد أن دفن قابيل أخاه المقتول رأى أبيه آدم، وعلم الأب بما حلَّ بابنه البارِّ هابيل فحزن عليه كثيراً.

أما قابيل فقد استوجب بقتله لأخيه غضب ربه وغضب أبيه.

العِبَر من قصَّة قابيل وهابيل:

يؤخذ من قصَّة قابيل وهابيل عدة عِبَرٍ، منها:

1 - أن التشريع السماوي بدأ من نزول آدم إلى الأرض، والذي كان منه مشروعية الزَّواج وما يحلُّ وما يحرم فيه. إذ حُرِّمَ على الرجل أن يتزوَّج الأنثى التَّوأم التي ولدت معه. وأُحِلَّ له الأنثى الأخرى من بطن آخر.

2 - أن العمل يتقبَّله الله من المتَّقين المخلصين والمحبِّين له.

---

(1) يبحث: يفتش.
(2) يواري: الدفن.
(3) سوءة: العورة، وهنا ما يسوء من رؤية جسد الميت.
(4) من النَّادمين: من الخاسرين.

3 – أن الحسد الذي حصل بين الأخوين أدّى إلى قتل قابيل لهابيل. فكان من نتيجتها أن الأوّل مات والثّاني خسر الدنيا والآخرة.

4 – التعلُّم من مظاهر الطبيعة بما يفيد الإنسان، كمراقبة قابيل للغراب كيف يواري سوءة أخيه. وما كان إرسال الغراب إلا لحكمة أرادها الله، ومن هذه الحكمة:

أ – أن يتعلَّم قابيل الذي بقي على قيد الحياة طريقة دفن الموتى في الأرض.

ب – أن الإنسان الميت لو بقي جثمانه مكشوفاً سوف يتغيَّر منظره فيصبح قبيحاً، فضلاً عن انتشار الأمراض التي قد تظهر من تحلُّل الجثمان.

ت – أن إرسال الغراب الأسود الذي يكره من بين أصناف الطُّيور وجعله أفقه من الإنسان الذي تعلَّم منه. وفي ذلك تحقير لقابيل على بشاعة العمل الذي قام به من قتل أخيه.

5 – أن المقصود من ذكر هذه القصص الإخبار بما في الكتب القديمة، لتقوم الحجَّة على أربابها وغيرهم، فالإخبار بها من جملة المعجزات بصحَّة القرآن الكريم بأنه منزل من عند الله.